نبينا ﷺ أسوتنا الحسنة وقدوتنا الطيبة.(٤)

يتحدث فلاسفة الأخلاق عن المثل الأعلى، ويختلف كل فيلسوف عن الآخر في تصور مثله الأعلى، فتتعدد المثل بتعدد رؤوس أصحابها.

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٦٠].

وقال المفسرون: إن المراد بالمثل الأعلى في الآية: الصفة المقدسة المنزهة عن المماثلة، ثم اختلفت تفاسيرهم لهذه الصفة بين قائل: إنها الوجوب الذاتي، وقائل: إنها التنزه عن الولد، وقائل: إنها الغني عن الآخرين، وغير ذلك وإذا كان الاشتراك في اللفظ لا

(٤) أخلاقنا – تأليف دكتور محمد ربيع محمد جوهري – ط٥ – ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

يوجب المماثلة ، فلا مانع من إطلاق (المثل الأعلى) على غير الله – تعالى – مع اختلاف المعنى ، فما هو المثل الأعلى للمسلم؟

إن القرآن الكريم يجيب على هذا السؤال فيقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١].

إن رسول الله ﷺ هو المثل الأعلى للمسلم ، والأسوة الحسنة والقدرة الطيبة.

والقدوة من أنجح أساليب تكوين الخلق:

إن الله – سبحانه وتعالى – لما أراد إنزال المنهج الأخلاقي في القرآن يسمع ويقرأ ، أراد أيضاً أن يكون سلوك الرسول ﷺ تطبيقاً لهذا المنهج يحس ويشاهد!! وصدقت السيدة عائشة < في إجابتها لمن سألها: « يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ

كان القرآن ».[٥]

« وكان قدوة للناس في واقع الأرض ، يرونه – وهو بشر منهم – تتمثل فيه هذه الصفات كلها ، وهذه الطاقات كلها ، فيصدقون هذه المبادئ الحية ، لأنهم يرونها رأي العين ، ولا يقرؤونها في كتاب! ويرونها في بشر ، فتتحرك لها نفوسهم ، وتهفو لها مشاعرهم ، ويحاولون أن يقبسوا قبسات من الرسول ﷺ كل بقدر ما يطيق أن يقبس ، وكل بقدر ما يحتمل كيانه الصعود لا ييأسون ولا ينصرفون.. ولا يدعونه حلماً مترفاً لذيذاً يطوف بالإفهام ، لأنهم يرونه واقعاً يتحرك في واقع الأرض ، ويرونه سلوكاً عملياً لا أماني في الخيال.

لذلك كان رسول الله ﷺ أكبر قدوة للبشرية في

(٥) أخرجه مسلم.

تاريخها الطويل ، وكان مربياً وهادياً بسلوكه الشخصي- قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به ، سواء في ذلك القرآن المنزل وحديث الرسول ﷺ».

وذلك أن الله قد أدبه فأحسن تأديبه ورباه فأحسن تربيته ، فكان المثل الأعلى في الكمال البشري.

ألم يكن ﷺ مثلاً أعلى في تحري الصدق ، وأداء الأمانة ، حتى اشتهر بالصادق الأمين؟

ألم يكن مثلاً أعلى في التفاني في سبيل الحق؟ أليس هو القائل: « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ».

ألم يكن مثلاً أعلى في الشجاعة والإقدام؟ « لقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺراجعاً وقد سبقهم إلى الصوت ،

وهو على فرس لأبى طلحة عري ، في عنقه السيف ، وهو يقول: لم تراعوا ، لم تراعوا »[٦].

ألم يكن مثلاً أعلى في الرحمة؟ « عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يسمع بكاء الصبي مع أمه ، وهو في الصلاة ، فيقرأ بالسورة الخفيفة»[٧].

وعن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: « إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطوِّل فيها ، فأسمع بكاء الصبي ، فاتجوَّز في صلاتي ، كراهية أن أشق على أمِّه»[٨].

وسأله بعض أصحابه أن يدعو على قريش بعد غزوة أحد ، فقال: «إني لم أبعث لعَّاناً ، وإنما بعثت

(٦) رواه مسلم.

(٧) أخرجه الإمام أحمد.

(٨) أخرجه البخاري.

رحمة»[٩].

وكان المثل الأعلى للزوج، وللوالد، لرب الأسرة وكأنه ﷺ قد تخصص في هذا الأمر فقط، ولم تشغله أعباء الأمة، ومشكلات الدولة.

«سئلت عائشة < : ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج»[١٠].

وعن حلمه أسوق هذا المثل الفريد، وهو قصة ذلك الأعرابي الذي تطاولت يده عليه ﷺ حتى جذبه من ثوبه الخشن جذبة عنيفة، أثرت في عاتقه، وتطاول لسانه، إذ قال: أحمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل من مالك، ولا من مال

(٩) أخرجه مسلم.

(١٠) أخرجه البخاري.

أبيك!!.

فسكت النبي ﷺ ثم قال: لا وأستغفر الله ، لا وأستغفر الله ، المال مال الله وأنا عبده ، ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي؟ فيقول: لا ، فيقول الرسول ﷺ: ولم؟ قال: لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة!!

ثم يأمر الرسول ﷺ أحد أصحابه: أحمل له على بعيريه هذين: على بعير شعيراً وعلى الآخر تمراً!!(١١).

أرأيت إلى هذا الحلم العظيم ، وإلى هذا الخلق الكريم!!

إن السيدة عائشة < تقول: « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً. فإذا كان إثماً كان أبعد الناس عنه وما انتقم رسول الله ﷺ

(١١) رواه أبو داود.

لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى ، فينتقم لله عز وجل بها»[١٢].

نعم لا ينتقم لنفسه ، وإن أساء إليه الآخرون ، ولكن يحلم ، ويصبر ، ويصفح!!

وعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥]. وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، وسميتك المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله – تعالى

(١٢) رواه البخاري

– حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله ، ويفتحوا بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً »(١٣).

وأما حياؤه فيقول أبو سعيد الخدرى: « كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها ، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه » (١٤).

«وكان النبي ﷺ إذا أتي باباً يريد أن يستأذن لم يستقبله ، جاء يميناً أو شمالاً فإن أذن له ، وإلا انصرف»(١٥).

وقد كان المثل الأعلى في خُلُق التواضع ، يقول أنس بن مالك: « ما رأيت رجلاً التقم أذن النبي ﷺ فيُنَحِّي رأسه ، حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه

(١٣) رواه البخاري.

(١٤) رواه مسلم.

(١٥) رواه البخاري.

وما رأيت رجلاً أخذ بيده ، فترك يده ، حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده »[١٦].

وكان أصحابه لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك[١٧].

وكان يمر على الصبيان ، فيسلم عليهم[١٨].

وأتي ﷺ برجل ، فأرعد من هيبته ، فقال له: « هوِّن عليك ، فلستُ بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» [١٩].

وكان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو ، حتى يسأل عنه [٢٠].

---

(١٦) رواه أبو داود.

(١٧) رواه الترمذي

(١٨) متفق عليه.

(١٩) رواه الحاكم.

(٢٠) رواه أبوداود.

هكذا كان تواضعه صلوات الله وسلامه عليه.

وماذا ترك رسول الله ﷺ بعد موته من أمور الدنيا؟

عن عمرو بن الحارث ختن رسول الله ﷺ أخي جويرية بنت الحارث قال: « ما ترك رسول الله ﷺ درهماً ولا ديناراً، ولا عبداً، ولا أمة، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة»(٢١).

ولا نريد أن نسترسل في ذكر جوانب أخرى من شخصية الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

إنما نؤكد على أن القدوة من أدق رسائل تربية الأخلاق، وأن الرسول ﷺ هو قدوة المسلم:

---

(٢١) رواه البخاري

- هو قدوته في بيته ، وفي تربيته لأبنائه.
- وهو قدوته في عمله ، في مجال ارتزاقه.
- وهو قدوته في مجتمعه ، وفي تعامله مع غيره.
- هو قدوته في كل ما يأتي ، وفي كل ما يدع.

وبهذا تبنى الأخلاق ، بهذا ينصلح حال المسلمين.

□□□